مناعة العربية

الأستاذ نعمان ماهر الكنعاني
بغداد

اللغة العربية ، لغة واسعة مرنة حصينة ويستطيع الباحث أن يدلل على هذه المزايا بالشواهد التي يضيق بها الحصر ولذلك أسباب منها التاريخي ومنها الذاتي، ومنها الديني ، فالسبب التاريخي يرجع الى كون اللغة العربية آخر لغة انفصلت عن اللغة الام السامية الامر الذي مكنها من أن تأخذ مما في السامية من مزايا وتتجنب ـ الى حد بعيد ـ كثيرا من مزالق مما لم يحصل للسريانية والعبرية ، اللتين سبقتا اللغة العربية في الانفصال .

وقد استفادت العربية من تطور السريانية والعبرية ومما اعتراهما من تحوير وتجديد فجاءت بدايتها لا كبداية هاتين اللغتين . اى ان بداية العربية جاءت أقرب الى النضج والاكتمال من شقيقتيها ، فكانت بداية جديرة بأن تقود الى نتيجة هي اكبر نضجا واستقرارا وسعة .

أما السبب الذاتي فهو نابع من صميم العربية ، أعني من طبيعتها صوتا وحرفا او حركة وحرفا ، اذ أن لهذه الطبيعة مجالا أرحب وشمولا أوسع ارتضته أو ارتضاه لها الناطقون بها ، أعني به المجاز والمرادف والاشتقاق . واما السبب الديني فهو في القرآن العظيم وأسلوبه المعجز .

فالحرف العربي حرف مرن مطواع ، يمكن تركيبه على صور وهيئات تخرج منها الالفاظ والكلمات ، وقد نمت هذه المرونة والطواعية منذ نشأة اللغة .

والشكل وهو حرف صغير يتغير موضعه من اللفظ فيحدث تلفظا جديدا يحمل معانى طريفة .

ولنأخذ مثلا الحروف (ق ت ل) فنؤلف منها كلمة واحدة هي (قتل) ، فهذه اللفظة الثلاثية ليست واحدة بل عدة ألفاظ ذات عدة معان في حروف ثلاثة واحدة فهي :

قتل وقتل وقتل ، اى اننا أوجدنا ثلاثة ألفاظ يحمل كل منها معنى مختلفا باستخدامنا ثلاث حركات نقلناها أو نقلنا بعضها من حرف الى حرف من هذه الحروف الثلاثة القاف والتاء واللام ، أى اننا اوجدنا ثلاثة معان من استخدام وتغيير مواقع الفتح والضم والكسر والسكون (لعل اعتبار الكسر فتحة تحتانية ...) وهكذا نرى أن الحروف الثلاثة لم تزد ولم تنقص وانما طرأ عليها تحريك يسير أعطاها معانى عديدة . ولنقل مثل هذا عن الالفاظ العربية الاخرى . فمطاوعة الحرف الى جانب وجود الحركة فيه ، جعل اللغة العربية مرنة ثرية .

أما المجاز والاشتقاق والمرادف فانها منابع رئيسية لهذه المرونة وذلك الاتساع كما أنها ثروة من الجمال الذي تتحلى به .

فالمجاز وهو استخدام اللفظ لغير ما وضع له بسبب علاقة ذات قرينة تمنع ان يفهم اللفظ بمعناه الاصلي هذا المجاز قد فسح للعربية ميدانا خصبا لا يحد بسهولة ، فلو قلت ان محمدا يلقي الدرر ، ادرك السامع مرادك وهو انه يتكلم كلاما فصيحا بليغا جميلا ... أو انك اذا قلت ، لقد جادت السماء ، ولبست الارض حلة قشيبة أدرك السامع أن مطرا هطل ونباتا ظهر واذا قلت ، زيد سحاب وجبل وسيف فهم منك ان زيدا كريم وقور شجاع .

والاشتقاق ، وهو أخذ كلمة من أخرى تتشابه فيها بعض الحروف ، فاذا تشابهت الحروف الاصلية اسفرت عن معانى قد تكون قريبة وقد تكون بعيدة عن المعنى الاصلي ، وهذا الاشتقاق قد أضاف الى العربية ما أضافه المجاز . فلفظة (بصر) التي هي النظر والرؤية ، كذلك الخبرة والدراية ولك أن تشتق منها وفق (قواعد الاشتقاق) افعالا وأسماء كثيرة لكل منها

معناها الخاص فانك تشتق منها بصر باصرة مبصر بصير متبصر وتبصر . وكل هذه أسماء تختلف فيما بينها اختلافا معنويا واضحا .

أمّا الافعال فهى لا تقل عن هذه الاسماء كثرة وتنوعا ، فلك أن تقول يبصر يتبصر يتباصر يستبصر ولكل منها معنى يختلف اختلافا عن معنى الفعل الاخر . فالاول ينظر ويرى والثانى يستعلم ويتحقق والثالث يدعى الرؤية او الخبرة والرابع يحاول النظر او الادراك .

فلو أحصيت ما اشتقت من اللفظة (بصر) لوجدتها عشرة الفاظ لها معان عشر والفاظ عشرة بل لعل المعانى فى حقيقتها تفوق العشر .

وهذا كله غير تصريف الفعل ، الذى لم نذكره لانه ليس من الاشتقاق وهو التصريف الذى يتناول اثنتى عشرة صيغة موزعة على الضمائر .

والمرادف وهو اللفظ الذى يؤدى نفس المعنى ويختلف عن مرادفه فى النطق والحرف ، أى يختلف اختلافا كليا . وهو باب من أوسع أبواب اللغة العربية ، بحيث جعل من المرادفات مصدرا لا ينتهى من مصادر القول والتعبير .

وليس أدل على هذا مما صنعه بعض المؤلفين القدامى مثل عبد الرحمن بن عيسى الهمذانى المتوفى عام 320 للهجرة ، فى كتابه (الالفاظ الكتابية) والذى جعله فى ثلاثمائة وستين بابا ، جمع فى كل باب من الالفاظ المختلفة حرفا المتفقة او المتقاربة معنى ، ما يعسر حصره ، وعلى سبيل المثال نذكر باب (حسن المنظر) كما أورده الهمذانى اذ ذكر فيه :

منظر حسن ونضير وبهيج وبهى ورائع وزاهر ورائق وقسيم ووسيم ومونق وزبرج وزخرف . ففى هذه المترادفات الاحد عشر ، وصفنا منظرا حسنا .

ولعل لغة غير العربية لا تملك مثل هذه السعة وهذا الغنى .

أما جمال اللغة العربية فانه ناجم عن الدقة والجرس وتجانس التركيب . وقد يكون من السهل تحديد هذه الصفات ، وقد يكون من الاسهل ايراد الشواهد عليها ، ولكن الصعوبة ، تكمن فى تصويرها للسامع تصويرا ماديا يمسك بالانامل ولعل هذا التصوير المادى ليس من متطلبات التدليل على جمال اللغة ـ اية لغة كانت ـ ولكنه مطلب يلح عليه البعض، ممن لا يدرك اولا يريد للعربية ان تكون جميلة .

والقول فى جمال لغة ما عند أهل تلك اللغة يعتمد مقاييس ذوقية ومادية تنتظمها مشاعر وقواعد ، فالمشاعر هى وليدة الحس الذى يقره العقل . والقواعد هى الادوات المصنوعة لاجراء القياس . ونحن حين نطبق هذه المقاييس على جمال لغة العرب ، نخرج بنتيجة مدهشة .

قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

(والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالافق الاعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) .

جرس أخاذ فى تقطيع لفظى عجيب يصوران موضوعا جليلا ببراعة معجزة .

بدأت الآية الكريمة بالقسم ، بالنجم الذى كان بعض العرب يحلونه محل الاله ، ولكن القسم ليس بالاله المزعوم فحسب بل به حين يهوى ويهبط من عليائه التى خدعت بعض الناس فجعلوا منه الها غير الله ، فهذا السقوط الذى يجرح الالوهية والذى اورده القرآن الكريم مع القسم ، له أبعاد معنوية خارقة ، ثم نفت الآية الكريمة عن الرسول العربى صفة الضلال التى اتهمه بها الجاحدون أولئك الذين بلغ الضلال بهم أن عبدوا النجم الذى ليست له مناعة ضد السقوط . ومضت الآية الكريمة فى تنزيه القرآن الذى نزل على الرسول الامين عن الهوى والعاطفة ، وقال فيه انه وحى من الله الخالق القوى ، الذى أمر الرسول بحمل رسالة القرآن فصدع بالامر ونهض يبشر قومه بهداه وينذرهم فى تنكرهم لرشاده .

ولم يكن هذا الوحى الكريم فى حالة تدعو الى التشكك او التشكيك ، لا بل كانت والرسول الكريم أقرب ما يكون الى ربه سبحانه ، انه كان على بعد ميا بين طرفى القوس والعرب يعرفون قصر المسافة بينهما حق المعرفة ، لان القوس تعيش بين أيديهم وتصحبهم طول الوقت .

هكذا استطاعت اللغة العربية ان تقسم بالمقدس جهلا وضلالة ، وتجرح تقديسه ، وتنفى عن الرسول الامين مزاعم المشركين ، وتسمق الوحى ، وتصف قرب النبى من خالقه فى حالة الوحى ، وتبين ان الدعوة ليس من هوى وعاطفة انسان ، بل ارادة ربانية . كل هذه المعانى صورتها اللغة العربية تصويرا هو من جمال القول فى الذروة .

واذا أردنا المزيد من التدليل على جمال العربية فالشواهد ميسورة في كل ضرب من ضروب الكلام ، في الشعر والنثر والخطابة والحكمة .

قال المتنبي يصف جيش سيف الدولة الحمداني :

خميس بشرق الارض والغرب زحفه
وفي اذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وامة
فما تفهم الحداث الا التراجم

وقال البحتري يصف الربيع :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه الفيروز في غسق الدجى
أوائل ورد كن بالامس نوما
يفتحها قطر الندى فكأنما
يبث حديثا كان قبل مكتما

هاتان صورتان من صور التعبير الشعرى ، في الاولى تجد الفخامة والقوة والسبك ، وفي الثانية تجد الرقة والعذوبة والرخامة . صورت اللغة في الفاظهما ما أراده الشاعران ، او صور الشاعران في كل منهما ما أراداه تصويرا تمازجت فيه الالفاظ بالمعنى ، فكانت روعة التعبير في الصورتين اللتين رسمتا موضوعين مختلفين أحدهما الجيش وضخامته وجلبته ، والثاني الربيع ونعومته وبهاء .

ولا باس من ايراد شاهدين آخرين ، وليكونا في موضوع واحد ، هو الرثاء ، أجاد فيه كل من الشاعرين اللذين رسما صورة للحزن على الفقيد ومكانته .

قال أبو تمام يرثي محمد بن حميد الطوسي ، وقد قتل في معركة فر فيها جنده ، وبقي هو في وجه عدوه بابك الخرمي :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
تقوم مقام النصر ان فاته النصر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده
اليه الحفاظ المر والخلق الوعر
فأثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها من تحت أخمصك الحشر
كأن بني نبهان يوم وفاته
نجوم سماء خر من بينها البدر

أما جرير فقد رثى زوجته فقال :

لولا الحياء لهاجني استعبار
ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولهت قلبي اذ علتني كبرة
وذوو التمائم من بنيك صغار
واذا سريت رأيت نارك نورت
وجها أغر يزينه الاسفار
كان الخليط هم الخليط فأصبحوا
متبدلين وبالديار ديار

لا شك في انك حين سمعت ابيات أبي تمام في الطوسي ، استشعرت الاباء والجلد والانفة والشجاعة ، وحين سمعت رثاء جرير زوجه ، احسست بالالم واللوعة والاسى .

وكلتا الصورتين الشعريتين لصور واحد هو الرثاء ، وان استخدمت الريشة من قبل رسامين هما الشاعران الرائيان .

أما حصانة اللغة العربية فحديثها يطول . فقد حوربت اللغة العربية في كل زمان وبكل سلاح ، وخرجت ظافرة مكللة بتاج الفخر سواء في عهود العرب الزاهرة ـ وكان أعداؤها الموالي والشعوبيين ـ أو عهود العرب الدابرة ـ وكان أعداؤها الفاتحين الغالبين ـ وكان سلاح كلا الخصمين مشحوذا منوعا ، فهو بين تخريب اللغة ذاتها واشاعة للخطأ فيها وترويج للغات الاعجمية بينها والحط من مكانتها ، وبين خنق لصوتها وكبت للسانها ومنع لاستعمالها وتفضيل لغيرها ، حتى ان الحرف العربي المطبوع كان آخر حرف نال مكانته من المطبعة .

وما زلنا اليوم نسمع فحيح الدعوى الى تهديمها تحت أسماء وشعارات مضللة ، تظهر تارة في كلماتها الفارغة وتارة في خرق القواعد وتارات في اشاعة الفوضى اللفظية والنحوية .

وقد اختارت هذه الحملة الشعر العربي الذي هو من أمنع أسوارها ، هدفا لها ولا استبعد ان يميلوا بعدها الى القرآن العظيم ، لا بل ان هذه النية مبيتة في كثير من صدورهم وهم يهمسون بها حينا ويلمحون اليها حينا آخر .

والذي أستطيع الحكم عليه ، هو انهم فاشلون . فكما فشلوا في أن ينالوا من الشعر مقتلا فلن يكتب لهم نجاح في الاغارة على أسلوب القرآن ، ذلك لان القرآن الحصن الامنع في صيانة لغة الضاد وهم قد فشلوا في أن ينالوا من الشعر مقتلا .

وما هذه الاصوات التي ترتفع من بعض بقاع أرض العرب ، الا بحة المختنق وان كان يزعم أهلها أنها

الحركة والتجديد .

فاللغة العربية حصينة ، لانها لغة القرآن أولا وهي منيعة لان شعر العرب انتظمها لفظا وأسلوبا .

وان الذى تعرضت له وما زالت من غارات أعجمية جاهلة ، او شعوبية حاقدة لم تصل الى ساحل هـذه اللغة البحر ، فكيف تحلم فى الوصول الى العباب .

واذا كان من المفيد أن أختم هذه الكلمة فى لغتنا العربية ، من حيث انها لغة متطورة جميلة متينة واسعة فأقول ، انها اللغة التى استوعبت ما ترجم اليها من كل لغات الدنيا فى مختلف العصور ، من أدب وعلم وفن وانها أضفت على ما ترجم اليها حياة جعل المترجم يفوق فى أحيان كثيرة الاصل .

وانها ترجمت الى مختلف اللغات وفى مختلف العصور ، فزادت اللغة التى ترجمت اليها رونقا وبهاء . وشواهد ذلك فى كل مكتبة ومع كل مثقف .

الاستاذ نعمان الكنعانى

القومية العربية واللغة الفصحى

« القومية العربية عقيدة قوامها ، من حيث الفكرة المثالية ، أمران : الاول : الشعور والايمان بأن الشعوب العربية في جميع أقطارها أمة عربية واحدة ، وبأن أوطان تلك الشعوب أجزاء من وطن كبير واحد هو وطن الأمة العربية . والثاني : ارادة السعي لتحقيق الأهداف السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية لهذه الأمة .

« أما العوامل الواقعية التي تقوم عليها القومية العربية ، أي بواعث ذلك الشعور وذلك الايمان وتلك الأرادة فهي على الأخص : (1) الاشتراك في اللغة العربية الفصحى ، (2) الاشتراك في التاريخ ، وأخص منه مآثر العرب وآثارها في العلم والثقافة والحضارة ، (3) الاشتراك في المصالح السياسية والاقتصادية في الحاضر وفي المستقبل » .

الامير مصطفى الشهابي